

المغرب الأوسط من خلال رحلة الحاج عبد الله بن الصباح الأندلسي

The Middle Maghreb through the Journey of Al-Hajj Abdullah ibn al-Sabah al-Andalusi

(1) د/ قرواح زكرياء D.Guernah Zakaria

(1) جامعة مرسللي عبد الله (تيبازة)

University of Tipaza

المؤلف المرسل: د/ زكرياء قرواح Guernah zakaria البريد الإلكتروني: Guernah.zakaria@cu-tipaza.dz

تاريخ الاستلام: 2025/12/ 25 تاريخ القبول: 2026/06/ 04 تاريخ النشر: 2026 /06/10

الملخص: تسعى هذه الورقة البحثية إلى تقديم صورة عن المغرب الأوسط في فترة الدولة الزيانية من خلال رحلة الحاج عبد الله ابن الصباح الأندلسي، والتي تعتبر إحدى الرحلات الحجازية الأندلسية المهمة لكونها دُوِّنت في مرحلة تاريخية حسّاسة، وهذا من خلال قراءة وتحليل ما تضمّنته من ملاحظات ومَشَاهِد ميدانية وانطباعات ذكرها الرّحّالة، والتي تكشف البّقاب عن بعض الملامح والأحداث المتعلقة بالمغرب الأوسط، وتسمح في تكوين رؤية واضحة عنه في فترة مهمّة من تاريخه.

الكلمات المفتاحية: عبد الله ابن الصباح؛ الرحلة؛ المغرب الأوسط؛ الدولة الزيانية.

Abstract:

This research paper seeks to present a picture of the Middle Maghreb during the Zayyanid period through the journey of Hajj Abdullah Ibn Al-Sabah Al-Andalusi, which is considered one of the important Hijazi-Andalusian journeys because it was recorded in a sensitive historical period. This is done by reading and analyzing what it included of observations, field scenes, and impressions mentioned by the travelers, which reveal some of the most recent features related to the Middle Maghreb It allows for the formation of a clear vision of it at an important period in its history.

Keywords: Abdullah Ibn al-Sabah; Journey; The Middle Maghreb; The Zayani state.

1. مقدمة :

تُمثل الرَّحلات الحِجازية نصوصًا تاريخية ذات قيمة علمية كبيرة، حيث تكمن أهميتها في اعتمادها على المعاينة المباشرة والملاحظة الميدانية، وهو ما يُساعد في فهم ودراسة الأحداث والاطلاع على الأحوال السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية للأماكن التي مرَّ بها صاحب الرحلة، وكذلك كشف التَّحولات التي طرأت خلال فترة التدوين.

ومن الأقطار التي حظيت باهتمامٍ بالغٍ من قِبَل بعض أصحابِ الرَّحلات الحِجازية، لاسيما القادمين من العدوَّة الأندلسية، إقليمُ المغرب الأوسط؛ حيثُ أسهم موقعه الجغرافي في جعله صلة وصل بين الغرب الإسلامي والمشرق، كما شكَّل منطقة عبور رئيسية للرحالة نحو المشرق، بالإضافة إلى اعتباره مركزًا علميًا وثقافيًا يتزود فيه الرَّحالة بالمعارف قبل مواصلة رحلتهم، ويعود هذا إلى وجود المدارس التعليمية ونخبة من الفقهاء والعلماء.

وكان من بين هؤلاء الرَّحالة الذين دونوا ملاحظاتهم عن المغرب الأوسط في فترة الدولة الزَّيانية "عبد الله بن الصباح الأندلسي"، الذي يَعتبره المؤرخون من الأندلسيين المخطوطين الذين استطاعوا أداء الحج والتَّنقل بين أقطار العالم الإسلامي في النِّصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. ويعود ذلك إلى الواقع الجديد الذي أصبح يعيشه الأندلسيون في مختلف الجوانب خلال تلك الفترة، بعد أن بسط الإسبان النصراني سيطرتهم على معظم الحواضر الإسلامية في الأندلس. وعند مروره بالمغرب الأوسط، قدم ابن الصباح صورة عامة عنه، مسلطاً الضوء على بعض جوانبه الهامة، ما يجعل من ملاحظاته مصدراً قيماً لدراسة الواقع خلال هذه الحقبة التاريخية. ومن هنا، تتمحور إشكالية هذه الدراسة حول محاولة تحليل الصورة التي رسمها الرحالة عبد الله بن الصباح الأندلسي عن المغرب الأوسط في رحلته، وتتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات أهمها من هو الرحالة عبد الله ابن الصباح الأندلسي؟ ما الخصائص التي ميزت رحلته؟ وما هي أهم المظاهر والقضايا التي لاحظها عبد الله ابن الصباح حول المغرب الأوسط وعبر عنها في رحلته؟

2. تعريف بصاحب الرحلة وتكوينه:

لم ترد ترجمة للرحلة الأندلسي ابن الصباح في المؤلفات والنصوص التاريخية، لكن من خلال رحلته نفسها يمكننا أن نستقي بعض المعلومات عن حياته؛ فعبد الله بن الصباح من المدجنين⁽¹⁾، وينتسب إلى مدينة شاطبة⁽²⁾ الأندلسية حيث ولد ونشأ⁽³⁾، والتي لم تغب عن ذهنه، وقد أكثر من مدحها والثناء عليها في رحلته، وكرر الإشارة إليها عند مقارنتها بالمدن التي زارها، كما ذكر بعض أعلامها⁽⁴⁾، على الرغم من هذا التضارب في آراء المؤرخين حول مولده ونشأته، فإنه يشير إلى أن أصله من اليمن، وقد أكثر من الفخر بنسبه اليمني وانتشاره في مشارق الأرض ومغاربها.⁽⁵⁾

والمستفح لرحلة ابن الصباح يكتشف ثقافته الواسعة وسعة اطلاعه على عدد كبير من المصنفات العربية والإسلامية، وقد أشار بنفسه إلى هذا الجانب من تكوينه الفكري بقوله: "اعلم أيها القارئ أن كل ما كتبناه وسطرناه هو كله من صدورنا ودماعنا، فما تقدم لنا قراءة على المشايخ والكتب، وهذا التاريخ رفعا في صدورنا وثبت في دماغنا..."⁽⁶⁾، ويتضح ذلك أيضًا من خلال ذكره بعض المؤلفين كالمسعودي.⁽⁷⁾

وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي كان يعيشها المسلمون المدجنون في عصره تحت حكم الممالك النصرانية في الأندلس، وما فرضته من قيود في مختلف المجالات، لاسيما في المجال العلمي، وهو ما أدى إلى غياب أهل العلم وفقدان الكثير من الناس لغتهم وتراجع مستواهم العلمي، ويؤكد هذا بقوله: "فرغنا من وصف جزيرة إصبانية... ذكرناه على وجه الاختصار لأن الشيء الطويل يلتبس على الطالب الضعيف من قلة الشيوخ، ويصعب عليه من غير شيخ أن يتصور وجه المسألة، لأنه لا بد لكل علم من معلم..."⁽⁸⁾، ويقول أيضا: "بلادنا المدجنة من عمائر الاندلس لا فيهم شيخ تعلم من شيخ إلا من النساخ والكتب وهي صم بكم..."⁽⁹⁾ وهذا يُظهر أن ابن الصباح كان حالة استثنائية بين المدجنين، حيث استطاع أن يحافظ على صلته بالتراث العربي الإسلامي وأن يحاول إحياءه في بيئة معادية له.

لقد تضاربت الآراء والافتراضات بين المؤرخين بشأن مكان وسنة وفاة ابن الصباح؛ فبخصوص سنة وفاته، يعتقد المؤرخون أنها كانت في النصف الأول من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، غير أنهم اختلفوا في مكان الوفاة؛ فمنهم من يذكر أن وفاته كانت بمدينة وهران⁽¹⁰⁾، ومنهم من يرجح وفاته في الأندلس.⁽¹¹⁾

3. التعريف بالرحلة:

من الواضح أن رحلة القلصادي لم يكن آخر الأندلسيين الذين قاموا برحلة حجازية، فقد تبعه عدد من أبناء الأندلس الذين استمروا في هذه الرحلات، وكان من بينهم الرحالة الحاج ابن الصباح وهو من فئة المدجنين، الذي قام برحلته في مرحلة بدأت اللغة العربية تفقد فيها حضورها بين هذه الفئة، وتزايد إحساسهم بالابتعاد عن دين أجدادهم بفعل الواقع الجديد في الأندلس. لقد جاءت رحلة ابن الصباح في سياق تاريخي دقيق وفي ظل ظروف سياسية وثقافية معقدة، كما أنها تمثل وثيقة تاريخية نادرة وفريدة في طابعها وأسلوبها، وتميزت بخصوصيتها.⁽¹²⁾

وتُعد رحلة ابن الصباح من النصوص النادرة التي حُفظت من تراث المدجنين، وهي وثيقة سردية تحمل طابعًا شخصيًا، سجل فيها صاحبها مشاهداته وانطباعاته خلال تنقله بين المدن التي زارها في الأقطار الإسلامية. ويذكر ابن الصباح أن دافعه إلى القيام بهذه الرحلة هو طلب العلم، كما قصد من خلالها أيضًا أن يوجه رسالة إلى إخوانه المدجنين في الأندلس، هذه الفئة التي عانت من التضييق والاضطهاد، ليؤكد لهم أن أرض الله واسعة، وأن الهجرة ممكنة، وأن الإسلام لا يزال قويًا ومنتشرًا في مناطق عديدة.⁽¹³⁾

والجدير بالذكر أن المؤرخين اختلفوا في تحديد عنوان رحلة ابن الصباح⁽¹⁴⁾، فمنهم من يرى أنها تحمل عنوان "منشأ الأخبار وتذكرة الأخيار"⁽¹⁵⁾ وبين من جعل العنوان "نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار"⁽¹⁶⁾، ومن ذهب إلى أن العنوان هو "أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار"⁽¹⁷⁾، ظل تاريخ انطلاق رحلة ابن الصباح غير محدد بدقة، على الرغم من الجهود التي بذلها الباحثون في تتبع مسارها استنادًا إلى المراحل التي قطعها الرحالة منذ حديثه عن الأندلس.

استهل ابن الصباح رحلته بالحديث عن جزيرة الأندلس، وأفرد وصفًا خاصًا لمدينة غرناطة، عاصمة مملكة بني الأحمر وآخر معاقل المسلمين في الجزيرة. بعد ذلك، توجه نحو المغرب الإسلامي حيث كانت محطته الأولى حواضر المغرب الأقصى، أين زار فاس ومراكش، ثم واصل رحلته نحو المغرب الأوسط مارًا بعدد من حواضره مثل تلمسان ووهران والجزائر. ومن هناك، تابع سيره في اتجاه المغرب الأدنى متنقلًا بين حواضره إلى أن بلغ طرابلس، ومنها سار إلى مصر، وهي المحطة الرئيسية لركب الحجيج حيث يجتمع الحجاج القاصدون لبيت الله الحرام للتوجه نحو أرض الحجاز⁽¹⁸⁾، فشاركهم المسير إلى أن دخل مكة المكرمة وأدى فريضة الحج.

ثم تابع رحلة سفره نحو أقطار أخرى، فزار اليمن وبلاد اليمامة ونجد، ومن هذه الأخيرة انطلق إلى بلاد الشام حيث زار العديد من الحواضر كبيت المقدس ودمشق وديار بكر. ثم انتقل إلى بلاد الأتراك العثمانيين مارًا بمدينة القسطنطينية، ومنها واصل طريقه إلى أن بلغ شمال بلاد فارس، ومن هناك اتجه نحو بلاد العراق. وقد دون خلال هذه الرحلة مشاهداته وانطباعاته، مسجلًا بذلك تجربة جغرافية وثقافية واسعة تمتد من أقصى الغرب الإسلامي إلى مشرقه.

4. وصف البيئة الجغرافية لمدن المغرب الأوسط:

سجل الرحالة ابن الصباح انطباعات مهمة عن البنية الجغرافية لأهم مدن المغرب الأوسط، مع تركيز خاص على حاضرة المغرب الأوسط، مدينة تلمسان. شمل وصفه تضاريسها المتنوعة، وطبيعة مناخها، إضافة إلى درجة خصوبة أراضيها. فبعد خروجه من المغرب الأقصى، شد الرحال نحو بلاد المغرب الأوسط، وكانت مدينة تلمسان محطته الأولى، حيث تحدث عن طبوغرافية المدينة ومناخها بشيء من التفصيل قائلاً: "مدينة تلمسان مدينة خضراء من كثرة البساتين والأشجار، طيبة الماء والهواء، قابلة على كل غريب بالوسع..."⁽¹⁹⁾.

كما أشار ابن الصباح إلى ما تتميز به المدينة من غنى زراعي، مبرزاً شهرتها بكثرة المحاصيل وتنوع المزروعات، حيث وصفها بقوله: "كثرة الزرع وشجر الزيتون والتين والعنب، والغالب عليها ثمار الزيتون وثمر الغدان، وتمتاز بالماء البارد والهواء المعتدل... كثرة الحرث والنسل والتجارة والحركات، مدينة قائمة بنفسها مستغنية عن غيرها من المدائن والحصون مثل وجدة وندرومة ومدينة هنين ومدينة وهران".⁽²⁰⁾

ثم انتقل بعد ذلك إلى ذكر مدن أخرى، فذكر وهران التي قال فيها: "...ومدينة وهران المذكورة مدينة مباركة بالحرث والنسل والخصب، من الزرع الغالب من الحنطة اليسيرة واللحم السمين والسمن والفواكه، مدينة مكاملة بالخير كافية بنفسها عن غيرها من البلاد، وهي على ساحل البحر مقابلة لمدينة مرسية"⁽²¹⁾ في بر الأندلس...".⁽²²⁾

وذكر أيضاً مدينة الجزائر قائلاً "...مدينة التجارة والخصب والرخاء الشامل من الزرع وألوان النعم، مدينة على ساحل البحر، مقابلة مدينة مالقة من جزيرة الأندلس....".⁽²³⁾

يتضح من وصف ابن الصباح للمغرب الأوسط من الجانب الجغرافي أنه اقتصر على ثلاث مدن فقط مشيراً لخصائص الجغرافية لكل منها، إلا أن ما أورده عن هذه المدن يكشف عن ثرائها الاقتصادي وتنوع غنى في المنتجات لاسيما الزراعية خلال تلك الفترة، فقد أشار إلى توفر مجموعة واسعة من السلع، ويشير هذا التنوع إلى ازدهار النشاط لتجاري فيها.

5. صورة السلاطين الزيانيين:

ولم يقتصر اهتمام ابن الصباح في رحلته على وصف مدينة تلمسان ومدن المغرب الأوسط فقط، بل تجاوز ذلك إلى الحديث عن الحياة السياسية من خلال إشارته إلى سلاطين الدولة الزيانية الذين سمع عنهم، فقد أبرز استقرار السلطة في يد بني زيان، واعتبر مدينة تلمسان مقرّاً راسخاً لحكمهم منذ عهد يغمراسن بن زيان.⁽²⁴⁾ وقد قدم ابن الصباح بعض الإشارات المقتضبة عن تاريخ الدولة الزيانية وبعض حكامها، فتناول جزءاً من نشأتها ومسار حكمها في المغرب الأوسط، مشيراً إلى انحدار الأسرة الزيانية من قبائل بني حمير⁽²⁵⁾ ذات الأصل اليمني قائلاً "مدينة تلمسان مملك بني عبد الواد ومملكتهم من زمان القديم من جدهم يغمراسن وأبي سعيد"⁽²⁶⁾ أحرار بقية من آل حمير ملوك التابع تبعات اليمن".⁽²⁷⁾

وتميز حديثه بالتركيز على شخصية السلطان أبي تاشفين الأول بن أبي حمو الأول، الذي خصه بوصف اتسم بالإعجاب والتقدير وأثنى عليه، حيث مدحه كثيراً وصوره مثلاً للحاكم العادل الفاضل وعدد خصاله، وأشاد بحسن تدبيره ومنجزاته في مجالات شتى، معبراً عن إعجابه بشخصيته بقوله: "ملوك بني عبد الواد نذكر منهم في الفضل والإحسان الملك أبا تاشفين الأول، كان له دولة وإنعام، وسعادة جملة دهور وسنين وشهور وأعوام، دامت عليه دولة تمهيد البلاد وقهر الرعية والعباد، وكان في خدمتها وزارات وإمارات وقياد... كانت دولة عظيمة ومكنة وعدل وصدقة وإيثار، وأعوام خصبة واطمئنان وعافية في البلاد، وسعادة في العمار بالرشاد، بني البلاد وشيد القصبات والأسواق والمساجد وزين البلاد..." (28).

ويذكر ابن الصباح أن السلطان أبي تاشفين²⁹ وكان يفخر على الملوك بما يملكه من ثروات كثيرة وقوة، قائلاً في هذا الصدد: "...وكانت مملكته عظيمة حتى كان يفخر على ملوك العرب بالمال والخزائن والحرث والنسل وزينة الثياب وكنوز الذهب والفضة والذخائر من الجوهر النفيس واللؤلؤ والزمرّد، والقدرة الواسعة بالمال والعبيد والوصفان من ولد حام، وبالخيّل والكُماة من ركوب السروج المذهبة، يفخر على سائر الملوك من ملوك المغرب بالعدة والشدة والقوة" (30).

كما أشار أيضاً إلى سلاطين آخرين بشكل مقتضب، كأبي حمو موسى الثاني وأولاده، الذي قال عنه: "...الفارس المشهور صاحب الرياضة والإدارة والفتق والرتق والسياسة والفتانة والحدق والحدّر، الملك أبو حمو... وأولاده كثرة لا أحصيه، ولكن نذكر منهم المشهورين: أبو تاشفين عبد الرحمن، وبعده أبو زيان، والملك عبد الله، ثم بعدهم الملك مُحمّد أبو ملك الزمان والعدل والإحسان، أدام الله دولته وخلد ملكه بالعدل والجود والكرم ما دامت الليالي والدهور..." (31).

6. غياب الاستقرار السياسي واضطراب الاوضاع:

تطرق ابن الصباح في رحلته إلى حالة الاضطراب التي كان يشهدها المغرب الأوسط، مبرراً غياب الاستقرار السياسي والفوضى الناتجة عن النزاعات المتكررة بين الأمراء الزيانيين حول السلطة، وعبر عن ذلك بقوله: "ملك بني عبد الواد ملك مبارك، ولكن كثير المصائب من أجل تبديل ملوكها، يذيق بعضهم بأس بعض، وتضعف من ذلك المملكة والحكم..."⁽³²⁾

فالمتتبع لتاريخ المغرب الأوسط يلاحظ أنه دخل في مرحلة صعبة منذ النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، حيث اشتدت الاضطرابات وحالة الفوضى وعدم الاستقرار السياسي بسبب انشغال أمراء الدولة الزيانية بالصراعات الداخلية بينهم حول العرش. لقد انقسموا بين طامح إلى الحكم ومعارض له، ونتيجة لذلك الوضع، انشغل القادة عن شؤون الحكم وإدارة أمور الدولة، بل اهتموا على الدسائس ونصب الفخاخ وحياسة المؤامرات، فأكل القوي الضعيف، وثار العم على ابن أخيه والابن على أبيه، فأصبحت الحكومة المركزية بدون سلطة وبدون صلة مع الأقاليم الأخرى. وقامت في المملكة إمارات شبه مستقلة في العديد من المناطق، تارة في الجبال وتارة في السهول، حيث اغتنمت كل جهة تناحر بني زيان وتقاتلهم وضعفهم لتحكم نفسها بنفسها، فتقلصت مملكة تلمسان إلى أن أصبحت لا تتجاوز العاصمة وأحوازاها.⁽³³⁾

كما أشار ابن الصباح إلى أن هذه الصراعات والفوضى أضعفت السلطة المركزية، وأفضت إلى غياب الأمن في المسالك والطرق بالمغرب الأوسط، وانتشار الخوف والهلع بين السكان، وأشاعت حالة من اللااستقرار، قائلاً: "ملك بني عبد الواد... وتضعف من ذلك المملكة والحكم، ويكون قطع الطريق، وتنحصر الناس عن الأسفار، ويضيق عليهم الحال والبر متسع، ما يعرف الناس بعضهم بعضاً، وكذلك جميع هذا البر العدوي المذكور كثير الحراميات - حرامي".⁽³⁴⁾

وتذكر المصادر، بما يوافق رواية ابن الصباح، تفاقم حالة اللاأمن في مسالك المغرب الأوسط في تلك الحقبة، حيث أصبح السير فيها أمراً بالغ الصعوبة. وقد سبب ذلك معاناة وهاجساً دائماً للسكان والمسافرين الذين تعرضوا للاعتداءات في المسالك، ونشير هنا إلى أن العلامة ابن قنفذ القسنطيني (ت

810هـ/1407م) اضطر للبقاء مدة من الزمن في تلمسان لعدم قدرته على مواصلة السير نحو قسنطينة خوفاً على نفسه⁽³⁵⁾، وقد طالبت حالة انعدام الأمن عدداً كبيراً من المسالك في المغرب الأوسط، حيث غدت مسرحاً للاعتداءات على مختلف فئات المجتمع، كالمسلك الرابط بين تلمسان ووهران.⁽³⁶⁾

7. رصد للمشهد التعليمي:

لقد سجل ابن الصباح إعجابه بالمشهد العلمي في مدينة تلمسان، حيث لفت نظره ما كانت تزخر به من كثرة العلماء المشهورين، إضافة إلى ما عرفته من حيوية فكرية وحركة علمية نشطة، مبرزاً مكانتها كحاضرة علمية بارزة في المغرب الإسلامي، قائلاً: "... ونرجع إلى وصف المدينة المذكورة، مدينة تلمسان، وهي كثيرة العلماء والقراء..."⁽³⁷⁾.

وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن الرحالة أبا الحسن القلصادي الأندلسي كان قد سبق إلى رصد المشهد نفسه عند حلوله بتلمسان عام 840هـ/1436م، بقوله: "... وأدركت فيها كثيراً من أهل العلم والزهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة، وتجار المتعلمين رابحة، والهمم في تحصيله مشرفة، وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية..."⁽³⁸⁾، وتعكس هذه الانطباعات المكانة المرموقة التي تميزت بها المدينة، باعتبارها فضاءً جامعاً للعلماء وطلبة العلم ومركزاً للإشعاع العلمي، وذلك على الرغم من الظروف الصعبة التي كان يمر بها المغرب الأوسط على جميع المستويات في تلك الفترة.

كما أشار ابن الصباح كذلك إلى وفرة المدارس التعليمية بتلمسان التي كانت تستقطب طلاب العلم بقوله: "...مدينة تلمسان... فيها المدارس الكثيرة وطلاب العلم والقراءة..."⁽³⁹⁾، والمعروف أنه خلال الفترة الزيانية كانت المساجد منتشرة في مختلف أرجاء المغرب الأوسط، ولم يقتصر دورها على أداء الشعائر الدينية وتعليم الناس دينهم، بل تجاوز ذلك إلى القيام بوظائف تعليمية وثقافية، فقد كانت فضاءات لتدريس مختلف العلوم، من لغة وأدب، إلى جانب غيرها من المعارف.⁽⁴⁰⁾

وفي معرض حديثه عن المدراس في تلمسان، خص الرحالة الأندلسي بالذكر مدرسة القاضي سعيد العقباني⁽⁴¹⁾، وقد قدم لها وصفاً يعكس قيمتها المعمارية، فشبها بجنة على الأرض، لما امتازت به من متانة في البناء، وزخرفة في السقوف، وأبواب مرصعة بالزينة، مما يظهر مدى العناية التي أحيطت بها. ولم يقتصر حديثه على هذه المدرسة، بل أشار أيضاً إلى مدرسة سيدي الحلوي⁽⁴²⁾، واعتبرها بدورها جنة فوق الأرض، مبرزاً ما تميزت به من خدمات اجتماعية، تمثلت في تقديم الطعام اعتماداً على الأوقاف التي خصصها الصالحون لهذا الغرض.⁽⁴³⁾

ويكشف هذا الوصف عن الدور المزدوج للمؤسسات التعليمية بتلمسان، حيث لم تكن مجرد فضاء للعلم والمعرفة، بل كانت أيضاً مؤسسات ذات طابع اجتماعي وخيري تساهم في الأعمال الخيرية داخل المجتمع.

8. خاتمة:

يتضح من خلال ما سبق أن رحلة الحاج ابن الصباح المدجن الأندلسي كان من المحظوظين من أهل الأندلس الذين تمكنوا من أداء فريضة الحج في ظل حكم النصارى الأسبان، في فترة اتسمت بتعقد الأوضاع على المسلمين المقيمين في المدن الواقعة تحت سيطرة النصارى، وما رافقها من تغييرات كبيرة أثرت على حياتهم.

تكتسي هذه الرحلة الحجازية أهمية تاريخية بالغة، نظراً للفترة الزمنية التي تمت فيها، وهي نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، حيث عرفت الأقطار الإسلامية خلال تلك الفترة أحداثاً كثيرة وأوضاعاً صعبة في مختلف النواحي، الأمر الذي يضفي على رحلة قيمة تاريخية خاصة ويبرز أهميتها.

كان المغرب الأوسط من المحطات الرئيسية التي مر بها ابن الصباح في رحلته نحو المشرق، ورغم المعلومات المقتضبة والمختصرة التي أوردها عنه، إلا أنها تظل ذات قيمة تاريخية وثيقة حية، نظراً لما تحتويه من معلومات قيمة تساعد في فهم ودراسة أحوال المغرب الأوسط في فترة زمنية صعبة من تاريخه.

وأثناء تواجده بالمغرب الأوسط، ركز ابن الصباح وأولى اهتمامًا لتفاصيل كثيرة، من ضمنها البنية الجغرافية لأهم حواضر المغرب الأوسط، حيث وصفها من ناحية التضاريس وطبيعة المناخ وخصوبة الأرض وأهم المحاصيل.

وقد رأينا في ثنايا هذه الرحلة انبهار صاحبها بسلاطين بني زيان، وتقديره لما حققوه من إنجازات عظيمة ومآثر بارزة، كما كشف عن الأوضاع الصعبة التي كان يعيشها المغرب الأوسط وغياب الاستقرار السياسي خلال فترة رحلته، وتضمنت كذلك ملامح عن الحياة التعليمية في مدينة تلمسان إذ عرفت بكثرة علمائها والطلاب، وهو ما يعكس مكانتها العلمية كمركز للإشعاع العلمي.

9. الهوامش:

(1) المدجنين: Losmadejares لفظ أطلق على الاندلسيين الذين بقوا ورفضوا مغادرة مدنهم التي سيطر عليها المسيحيين الأسبان. انظر/ حسين يوسف دويدار، **المسلمون المدجنون في الاندلس**، مطبعة الحسين الإسلامية، مصر، 1993م، ص 9-10.

(2) شاطبة: من أعمال بلنسية مدينة كبيرة وقديمة تقع في شرق الاندلس وشرق قرطبة، وهي موجودة على سند جبل وحصنها في أعلاه وهو منبع لا نظير له، تشتهر ببساتينها الجميلة وكثرة الزرع والثمار. العذري، **كتاب نصوص عن الاندلس (من كتاب ترصيع الاخبار)**، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، د ت، ص 18-19؛ ياقوت الحموي، **كتاب معجم البلدان**، دار الصادر، بيروت، 1977م، ج3، ص 309-310.

(3) الحاج عبد الله بن الصباح، **أنساب الأخيار وتذكرة الأخيار "رحلة المدجن الحاج عبد الله بن صباح"**، تحقيق محمد بنشرية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط-المغرب، 2008، ص 11-12.

(4) المصدر نفسه، ص، ص 91، 87، 107، 127، 188.

(5) المصدر نفسه، ص، ص 12، 58، 70، 72، 88، 154، 155، 159.

(6) المصدر نفسه، ص 74.

(7) المصدر نفسه، ص 58.

- (8) المصدر نفسه، ص 76.
- (9) المصدر نفسه، ص 229.
- (10) المصدر نفسه، ص 42.
- (11) الحاج عبد الله بن الصباح، نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار، تحقيق جمعة شيخة، مجلة دراسات الاندلسية، العدد 45-46، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر، تونس، 2012، ص ص ح-د؛ أنظر أيضا مصطفى علوي، قراءة في رحلة المدجن الحاج عبد الله بن الصباح، مجلة دراسات، مجلد 4، عدد 2، جامعة طاهري محمد، بشار-الجزائر، 2015م، ص 175.
- (12) عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، مراجعة عباس صالح طاشكندي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، الرياض، 2005م، ج 1، ص 165.
- (13) الحاج عبد الله بن الصباح، أنساب الأخيار، تح محمد بنشريف، ص 74.
- (14) مصطفى علوي، المرجع السابق، ص 176.
- (15) الحاج عبد الله بن الصباح، نسبة الأخيار، تح جمعة شيخة، ص خ.
- (16) المصدر نفسه، ص ص د-ذ.
- (17) الحاج عبد الله بن الصباح، أنساب الاخبار، تح محمد بنشريف، ص 3.
- (18) المصدر نفسه، ص 128.
- (19) نفسه.
- (20) المصدر نفسه، ص 95.
- (21) مرسية: مدينة شرق الاندلس، كانت قاعدة تدمير، شيدها عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم، تقع على نهر كبير يروي المدينة، تضم جامع جليل وحمامات وأسواق، تمتاز بوفرة الأشجار وتنوع الثمار ووجود المعادن، لها حصون وقلاع وقواعد، منها إلى بلنسية خمس مراحل، ومنها إلى قرطبة عشر مراحل. الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م، ص ص 539-540.
- (22) الحاج عبد الله بن الصباح، أنساب الأخيار، تح محمد بنشريف، ص 95.
- (23) المصدر نفسه، ص 96.
- (24) يغمراسن بن زيان: مؤسس الدولة الزيانية تولى إمارة الدولة سنة 633هـ/1236م، عرف بالشجاعة والدهاء السياسي، فقد استطاع توطيد أركان الدولة وتنظيمها وبسط نفوذها على إقليم المغرب الأوسط حتى أصبحت قوة بارزة

بالمغرب الإسلامي، توفي سنة 681هـ/1282م. عبد الرحمن ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العبر والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، لبنان، 2000م، ج7، ص ص105-106.

(25) كان من الشائع لدى المؤرخين المسلمين إرجاع نسبة زناتة إلى حمير، لكن هذا الرأي أنكره فيما بعد المؤرخون أمثال ابن خلدون وابن حزم الأندلسي. مُجَّد بن عميرة، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص ص16-17.

(26) أبي سعيد عثمان: ابن الأمير يغمراسن بن زيان، تولى إمارة الدولة الزيانية بعد وفاة والده سنة 681هـ/703م، واصل نهج والده في إدارة شؤون المغرب الأوسط وتنظيمها، شهدت فترته تصاعد خطر الدولة المرينية، التي شرعت في تنفيذ حملات عسكرية متتالية على تلمسان، توفي سنة 703هـ/1303م. عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص123، 127.

(27) الحاج عبد الله بن الصباح، المصدر السابق، تح مُجَّد بنشريفية، ص92.

(28) نفسه.

(29) أبو تاشفين الأول عبد الرحمن: ابن السلطان أبي حمو الأول تولى إمارة الدولة الزيانية بعد إغتيال والده سنة 718هـ/1318م، بلغت الإمارة الزيانية في عهده ذروة ازدهارها وتطورها في شتى المجالات، إلا أنها سقطت خلال فترة حكمه في يد السلطان المريني أبو الحسن قتل سنة 737هـ/1337م أثناء مشاركته الدفاع عن تلمسان. التنسي مُجَّد بن عبد الله، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود آغا بوعباد، موفم للنشر، الجزائر، 2011م، ص ص139، 146.

(30) الحاج عبد الله بن الصباح، المصدر السابق، تح مُجَّد بنشريفية، ص93.

(31) المصدر نفسه، ص ص93-94.

(32) المصدر نفسه، ص96.

(33) مولاي بلحميسي، نهاية دولة بني زيان، مجلة الاصاله، العدد 26، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر،

1975م، ص31.

- (34) الحاج عبد الله بن الصباح، المصدر السابق، تح مُجَّد بنشريف، ص ص 96-97.
- (35) ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحفير، تصدير مُجَّد الفاسي وأدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، جامعة مُجَّد الخامس، مطبعة أكسال، المغرب، 1965م، ص 105.
- (36) مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، منشورات الحضارة وزارة الثقافة، الجزائر، 2009م، ج 2، ص 150.
- (37) الحاج عبد الله بن الصباح، المصدر السابق، تح مُجَّد بنشريف، ص 94.
- (38) القلصادي أبو الحسن علي، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق: مُجَّد أبو الاجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م، ص 95.
- (39) الحاج عبد الله بن الصباح، المصدر السابق، تح مُجَّد بنشريف، ص 94.
- (40) الشيخ عدة، التعليم ومؤسسته في المغرب الأوسط (633-962هـ/1235-1555م)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، مجلد 9، عدد 4، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي-الجزائر، 2024م، ص ص 23-24.
- (41) مدرسة سعيد العقباي: لا توجد مدرسة بتلمسان في العهد الزياني بهذا الاسم وأغلب الظن أنه يقصد المدرسة التاشفينية لانو الفقيه سعيد العقباي كان أستاذ بالمدرسة التاشفينية، وهذه الأخيرة شيدها السلطان أبو تاشفين الأول عبد الرحمن بجانب المسجد الجامع الأعظم. عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، موفم للنشر، الجزائر، 2002م، ج 2، ص 142؛ عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص 179.
- (42) مدرسة سيدي الحلوي: تم بناء هذه المدرسة بأمر من السلطان المريني أبي عنان المريني، خلال فترة سيطرته على تلمسان والمغرب الأوسط سنة 754هـ/1454م بالقرب من ضريح الوالي الصالح أبي عبد الله الشوزي الاشيلي الملقب بالحلوي الذي يقع شمال المدينة. عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 144.
- (43) الحاج عبد الله بن الصباح، المصدر السابق، تح مُجَّد بنشريف، ص 94.